لماذا هذا الكون ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذه المحاولة وما فيها من عبر إلى الذين يؤمنون بهذا الشعار (النجاة في الصدق) ويحاولون تطبيقه في حياتهم مهما كانت الصعوبات والإغراءات ، فهو في الحقيقة النور الذي يهدي البشرية إلى الخير والعدل والسلام إذا آمنت به وعلمته لأجيالها .

لماذا هذا الكون؟

تساؤلات وأفكار تحتاج إلى البحث العميق المستفيض والتمحيص الصادق الأمين . ومن أعظم التساؤلات وأهمها ذلك التساؤل الذي ذكره مركز الأبحاث الكونية (NASA) الكائن في ضواحي هيوستن بالولايات المتحدة ، فبعد أن أكَّد هذا المركز العظيم أنه قد توصَّل إلى كيفية قيام هذا الكون الذي كان سحابة ضخمة تعمُّ الفضاء قد انفجرت في زمن سحيق ، وقد عرَّفوا هذا الانفجار بالانفجار الكوني الـ(Big Bang) كما أبانوا كيفية وساعة حدوثه وأنهم الآن يبحثون الأسباب التي أدَّت إلى هذا الحدث العظيم ، وقالوا في أبحاثهم المستفيضة إنهم لو توصلوا إلى سبب حدوث هذا الكون فإن مشاكل المجتمع البشري ستجد طريقها إلى الحل والتفاهم . وبناءً على ذلك علينا نحن بني البشر جميعًا أن نبحث ونتأمَّل ، خصوصًا أنه قد وردت إشارات مذهلة بالخصوص في بعض آيات رسالة السماء ، في القرآن الكريم . وقد جاء في أول ما أنزل منه قوله تعالى :

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق : 5 – 1] . فمن الواضح جدًّا جدًّا أن ربَّ هذا الكون ، كما جاء في هذه الآيات الكريمة ، يحثُّنا على القراءة والبحث للوصول إلى معاني ما غمض عنَّا في هذه الحياة ، وهو الذي يبحث عنه مركز الأبحاث الكونية بقوله إننا إذا وصلنا إلى معرفة لماذا هذا الكون فإن جميع مشاكل البشرية تكون قد وجدت طريقها إلى الحلِّ الواضح المريح .

المدهش في تكوين هذا الكون وأبعاده

وعليه فإنه عندما يفكر الإنسان في هذا الكون وحجمه وأبعاده وما وصل إليه العلم بالخصوص لا شك أنه يُصاب بالدهشة والتعجب ، من ذلك ما يقوله العلماء إن هذا الكون يحتوي على ملايين الملايين من المجرات ، وكل مجرة تحتوي على ملايين الملايين من الكواكب السيارة والنجوم الثابتة ، وقد ذكر العلم أن في هذا الكون أجرامًا تبعد عن كوكبنا الأرضي بليونَيْن من السنوات الضوئية ، فإذا كانت سرعة الضوء ثلاثة آلاف وستمائة ميل في الثانية فليتصور العقل البشري هذه المسافة التي تبلغ ثلاثة آلاف وستمائة ميل مضروبة في 60 ثانية× 60 دقيقة× 24 ساعة×30 يومًا×12 شهرًا×2 بليون سنة . إن العقل البشري لا يكاد يستوعب هذه الأبعاد المذهلة الخارقة!

ولعل هذه الأبعاد الضخمة الرائعة العجيبة التي تُحيط بنا نحن بني البشر هي التي تستحثنا على التأمل والبحث في آياته تعالى التي جاءت في القرآن الكريم .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : 191 – 190] .

وقد كان ممَّا استجاب لهذا النداء الربَّاني المُقدس مركزُ الأبحاث الكونية (النازا) كما سبق أن ذكرنا ، فقد توصل بعد أبحاث علمية طويلة ومستفيضة إلى أن هذا الكون كان سحابةً ضخمة ليس لها حدود وقد انفجرت ذلك الانفجار العظيم ، ومن هذا الانفجار تكوَّنت هذه السُّدم والمجرَّات والنجوم

والكواكب ، ومن بينها كوكبنا الأرضي ، وهذا ما سماه هذا المركز العلمي «BIG BANG» .

وقد حدَّد هذا المركز العلمي كيفية وساعة حدوثه بطريقة علمية غير قابلة للشك ، وتبين أن ذلك قد حدث منذ حوالي ثلاثة عشر مليار سنة ، والدراسات العلمية التي قدمها هذا المركز قد بينت بالتفصيل كيف توصَّل هذا المركز إلى هذه المعلومات المُبهرة التي تأخذ بمجامع العقول والقلوب .

التساؤل الأول المُبهر بل المُعجز ما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت : 11] . والدخان في هذه الآية هو السحابة الضخمة التي أشار إليها مركز الأبحاث ، ثم قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : 30] . والشيء المرتق في اللغة العربية هو أطراف الشيء المجمَّعة ، وفتق الشيء المرتَّق هو تفريقه عن بعضه البعض ، وهذا ما ينطبق في كيفيَّة تكوُّن هذا الكون .

لم توجد في الأبحاث الكلدانية أو الآشورية أو الفرعونية وحتى في الدراسات الإغريقية ما يشير إلى ما في هذا الكون من مجرات وسُدم وكواكب ، وأنه كان نتيجة الانفجار الكوني الذي أشارت إليه الآيات الكريمة كما أشار إليه مركز الأبحاث الكونية (النازا) الآن .

إنها معجزة القرآن الكريم .

فالعلاقة واضحة في هذه الآيات المقدَّسة من القرآن الكريم بما جاء في أبحاث مركز الدراسات الكونية وما توصَّل إليه من معلومات بخصوص الانفجار الكوني (البق بانق) (Big Bang Theory) وكيفية ووقت حدوثه !

* * *

ماهية الذرات الأرضية

الأبحاث العلمية أكدت أن هذه الأرض وما فيها من نبات وحيوان وإنسان وتراب وصخور وذهب وحديد ونحاس وخشب . . . إلخ ، يتكوَّن من ذرات ، والذرَّة في جوهرها هي عبارة عن نواة تدور حولها إلكترونات ، وأنواع الذرات تختلف باختلاف عدد الإلكترونات التي تدور حولها باستمرار ، وقد حدد العلماء عدد أنواع هذه الذرات بعدد يصل إلى حوالي مائة وخمسة أنواع .

وقد جاء في الآية الأولى من سورة غافر قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر : 1] .

والجناح في اللغة العربية هو ما جنح عن المركز ، وبالتالي تعتبر الإلكترونات التي تدور حول مركز الذَّرة أو النواة ، هي في الحقيقة أجنحة .

والتساؤل الثاني : هل يجوز لنا مقارنة ما جاء في الآية الكريمة من سورة غافر وما جاء في الأبحاث العلمية حول الذرات في هذا الكون وكيفية تكوينها من نواة وإلكترونات تدور حولها؟!

* * *

السر العميق المُذهل في تواجد الهواء في جميع أنحاء الكوكب الأرضي

إن الأبحاث العلمية تقرر أن هذا الكون قد خُلق من ملايين المجرَّات ، وكل مجرَّة تتكوَّن من ملايين الملايين من النجوم الثابتة والكواكب السيَّارة ، وكل هذه النجوم والكواكب ، بما في ذلك الكوكب الأرضي ، إنما تتكون من الذرَّات بأنواعها المختلفة . وأن الكوكب الأرضي في أول وجوده كان خاليًا من النباتات والأشجار كما كان خاليًا من المخلوقات الحيَّة ، فالذي كان يعمُّه هو الماء والهواء .

إن المخلوق البشري وجميع المخلوقات الأخرى من نبات وحيوان وإنسان إنما يتكوَّن من تراب وماء وهواء ، وإن التراب يتكوَّن من أنواع عديدة من الذرَّات ، وأما الماء فإنه يتكوِّن من ذرَّتين أساسيتين هما الهيدروجين والأكسجين ، أما الهواء فإنه يتكوَّن من ذرَّة أساسية واحدة هي الأكسجين .

إن المخلوق البشري يستطيع أن يعيش لمدَّة ستين يومًا بدون غذاء ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش أكثر من ثلاثة أيام بدون ماء ، ولا يستطيع أن يعيش أكثر من دقيقتين بدون هواء .

إن الغذاء البشري ، سواء كان نباتًا أو حيوانًا أو أسماكًا أو أي شيء آخر ، إنما يتكوَّن من أنواع متعددة من الذرات التي تشمل الجماد والماء والهواء .

إن الجماد يتواجد في هذه الأرض بنسبة 30% تقريبًا ، وأما الماء فإنه يتواجد فيها بنسبة 60% تقريبًا ، وأما الهواء فإنه يتواجد في جميع أنحاء الكوكب الأرضي بنسبة 100% ولا يخلو أي مكان في هذا الكوكب ، سماءه وأرضه ، من الهواء .

وكما سبق أن ذكرنا أن الجماد يتكوَّن من أنواع متعددة من الذَّرات ، وأما الماء فيتكون من نوعين أساسيين من الذرات هما الهيدروجين والأكسجين ، أما الهواء فإنه يتكوَّن من ذرة أساسية واحدة هي الأكسجين .

فإذا كان الأكسجين يتكوَّن من نواة وثمانية إلكترونات ، فالتساؤل الثالث هو : ما علاقة كل ذلك بقوله تعالى في كتابه الكريم في سورة الحاقة الآية 17 :

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝﴾ ؟!

* * *

الآيات القرآنية وفكرة التطور

إن الدراسات العلمية قد أثبتث أن جميع المخلوقات قد تكوَّنت أساسًا في المياه الراكدة حيث ظهرت الأميبا المخلوق ذو الخلية الواحدة والتي تكاثرت بالانقسام الذاتي حيث نتج من هذا التكاثر الحيوانات المائية والتي تطورت إلى المخلوقات الزاحفة ومنها إلى الطيور ، وبالتطور وُجِدت الحيوانات التي تمشي على أربع ثم شيئًا فشيئًا وبعد ملايين ملايين الأحقاب تكوَّن الإنسان الذي يمشي على اثنتين ، وذلك حسب ما فصَّلته النظرية الدارونية .

وقد جاء في القرآن الكريم في سورة النور الآية 45 قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وقوله تعالى في سورة المؤمنون الآيات 12و13و14 : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : 14 - 12] . وقوله تعالى في سورة نوح الآية 14 : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح : 14] .

والتساؤل الرابع : هل هناك علاقة بين ما جاء في النظرية العلمية في كيفية الخلق ، وما جاء في الآية 45 من سورة النور؟!

* * *

السرُّ العميق في قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

إن المتفق عليه علميًّا أن البصمة لا تتكرر أبدًا ، وقد اعتادت الجهات الرسمية في جميع الدول تقريبًا الاعتماد على البصمة في إثبات شخصية أي انسان ، وقد اعتادت بعض الجهات الرسمية الاعتماد على البصمة أكثر من اعتمادها على التوقيع في إثبات نسبة المستند إلى هذا الشخص أو ذاك .

وقد جاء في قوله تعالى في سورة القيامة ، الآيتان 3 و4 : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة : 4 -3] . ولا شك أن تسوية البَنَان لا بدَّ أن يكون المقصود منها هو تسوية البصمة التي لا تتكرر من شخص إلى آخر .

والتساؤل الخامس : هل هناك علاقة بين ما ثبت علميًّا من عدم تكرار البصمة بين شخص وآخر ، وما جاء في الآيات القرآنية الكريمة المُشار إليها بأن الخالق وحده القادر على إرجاع هذا الإنسان ذاته ببصمته المذكورة؟!

* * *

القرآن الكريم وكرويَّة الأرض

قد جاء في القرآن الكريم قولُه تعالى في سورة النازعات : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات : 30 - 27] . والدحية في اللغة العربية وفي اللهجة الليبية هي البيضة ، بمعنى دحاها أي جعلها مثل البيضة ، أي كرويَّة .

وقد كان الناس في العصور القديمة يعتقدون أن الأرض مسطَّحة حسب ما هو منصوص عنه في الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية ، وكذلك حضارة الفراعنة والكلدانيين والآشوريين والسومريين ، واستمرَّ ذلك الاعتقاد الخاطئ إلى القرون الوسطى أي حوالي القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد ، عندما ذكر أحد المفكرين الإيطاليين هو جاليليو جاليلي (بالإيطالية : Galilei Galileo) أن الأرض ليست مسطحة بل هي كروية ، قد ثارت الكنيسة إذ ذاك على هذا المفكر العظيم فحكمت بإحراقه حيًّا ، مما يدل على مدى تشبث الإنسانية في تلك العصور بفكرة تسطح الأرض .

والتساؤل السادس : ما علاقة ما ذكره القرآن الكريم في سورة النازعات حول أن الله خلق الأرض مثل الدحية (دَحَاهَا) ، وأن الناس كانوا يجهلون ذلك آلاف السنين السابقة ولم يكتشفوا كروية الأرض إلا في هذه المدة الأخيرة التي لا تزيد على خمسمائة سنة؟!

* * *

خُلقنا من التراب وغذاؤنا من التراب ونهايتنا إلى التراب

من المتفق عليه علميًّا وما أكَّده العلماء المتخصصون أن هذا المخلوق البشري قد وُجد في هذا الكون نتيجة تطورات عجيبة ومذهلة ابتدأت أساسًا من الأميبا التي نشأت في المستنقعات المائية وبناءً على تفاعلات مائية وترابية وهوائية ، وقد تكاثرت بطريقة الانقسام الذاتي حتى كوَّنت نوعًا من الحشرات التي تعيش في الماء ، ومنها ومن تطورها في العصور السحيقة تكونت أنواع مختلفة التي تعيش في البحار والأنهار ، ومع مرور ملايين وملايين السنين والأحقاب ، ومع التقلبات الأرضية نشأت المخلوقات التي تعيش بين الماء واليابسة مثل التماسيح والضفادع والسلاحف ، وبتطورها تكونت أنواع الزواحف من الثعابين والأفاعي ، ومع تعاقب الدهور والأجيال وُجِدت المخلوقات التي تطير في الجو والتي تمشي على اثنتين والتي تمشي على أربع ، ومن كل ذلك وجد المخلق البشري ، وكل هذه المخلوقات التي وُجِدت من التراب فجميعها تنتهي إلى التراب ، وهي الحقيقة الحاسمة الدامغة التي لا استثناء فيها ، وقد قال خالق هذا الكون في كتابه العزيز الكريم في سورة طه : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : 55] .

والشيء العجيب اللافت للنظر والذي يؤكد نفس المبدأ والقاعدة السالفة أن كل ما نعيش عليه ونتغذّى به هو التراب ونتاج التراب ، فنحن نتغذَّى في غذائنا اليومي ، سواء كان من النشويات أو الفواكه أو اللحوم ، هو في حقيقته العميقة تراب وماء وهواء؛ فالقمح أو الشعير أو الحنطة إنما هو في حقيقته العميقة عبارة عن نبات زُرع في التراب ، وبإضافة الماء؛ أي سقيه ، قد نما بمساعدة الهواء حتى صار زرعًا ناميًا يُحصد بعد تمام نموِّه ثم يُطحن ليكون غذاءنا

من النشويات . وأما أنواع الفاكهة والخضراوات فهي عبارة عن أشجار أو نباتات مغروسة في التراب وتتغذَّى بالماء والهواء من التراب إلى أن تصير من أنواع الفاكهة أو الخضراوات نتغذَّى بها ، فهي في حقيقتها تراب صار مستساغًا تناوُله وأكله ، فإذا جئنا إلى أنواع اللحوم فهي لا تخرج عن نفس القاعدة ، فاللحوم سواءً كانت غنمًا أو بقرًا أو إبلًا أو غير ذلك من أنواع اللحوم فإن هذه المخلوقات إنما تعيش وتنمو بناءً على غذائها اليومي من الحشائش أو البقول ، وهذه الحشائش والبقول إنما هي في حقيقتها تراب كما سبق أن ذكرنا ، وقد قال الله في كتابه الكريم في سورة عبس : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس : 32 - 24] .

* * *

نهايةُ دولة إسرائيل والصهيونية العالمية المؤكَّدةُ في هذا القرن

وقال الله في كتابه الكريم : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء : 8 – 4] .

إن ما جاء في هذه الآيات الكريمة يلخِّص بوضوح وإعجاز تاريخ بني إسرائيل القديم ، وتاريخهم الحاضر ، وما سوف يئول إليه في القريب العاجل . فهم قد ورثوا مملكة أنبياء الله ، داود وسليمان ، عليهما سلام الله ، التي تمتدُّ من النيل إلى الفرات ، في القرنَيْن السابع والثامن قبل ميلاد المسيح ، وقد عاثوا في هذه الأرض فسادًا وظلمًا وصراعًا على السلطة لبضعة قرون حتى هاجمهم الكلدان بزعامة نبوخذ نصر ، على ما أذكر ، وأخذ الآلاف منهم أسرى وألقى بهم في برج بابل ، وهذه نتيجة فسادهم في المرة الأولى ، الآية الكريمة : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء : 5] . واستمرَّ هذا الوضع الكئيب لبني إسرائيل ردحًا من الزمن ، وفي بداية القرن التاسع عشر من ميلاد المسيح بدأ جمعهم في الظهور بقيام الصهيونية العالمية ، فاستطاعوا بالمثابرة والاتحاد والذكاء أن يستولوا شيئًا فشيئًا

على المصانع الكبرى الحديثة وخصوصًا مصانع السلاح في أوروبا وأمريكا ، كما تمكنوا من السيطرة على بيوت المال من بنوك ومصارف وغير ذلك مما يتعلق بالنقد والتصرف في شئونه ، وعن هذا الطريق تسرَّبوا إلى مراكز السلطة الحساسة ، من المخابرات السرية ذات التغلغل العالمي مثل الـ« C I A » ، وكذلك السلطات التشريعية والتنفيذية في الولايات المتحدة وفي أغلب دول أوروبا ، الأمر الذي جعل أحد أعضاء مجلس الشيوخ في أمريكا وقد حضرت بنفسي له محاضرة في واشنطن في الثمانينيات من القرن الماضي ، يقول فيها ، إن أمريكا دولة ديمقراطية ، وقد استغلَّ ديمقراطيتها اثنان في المائة من الشعب الامريكي ، المسيطرون على الصناعة وبيوت المال ، وأنتم تعرفونهم ، فساروا بسياستها في كثير من الأحيان في غير مصلحة أمريكا ، تأييدًا لدولة المهجر في الشرق الأوسط (إسرائيل) ، الأمر الذي جعل نتيجة أحد الاستفتاءات العالمية التي أُجريت في أوائل هذا القرن تقرر أن ما يسود العالم الآن من اضطراب وأخطار إرهابية عميقة الجذور سواء المنظورة منها وغير المنظورة ، هي نتيجة سياسة الولايات المتحدة وإسرائيل في أرجاء العالم ، كما أن الثابت عالميًّا أن الصهيونية تسيطر على ثمانين في المائة تقريبًا من الإعلام العالمي ، وأن «مردوخ» الصهيوني الآتي إلى أمريكا من أستراليا في الثمانينيات من القرن الماضي قد صار معروفًا عند جميع المفكرين والمختصين بما يجري في هذا العالم ، بأنه إمبراطور الإعلام في العالم . وما تقدم يُعتبر تطبيقًا لما جاء في الآية : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء : 6] . والنفير بمعناه الواسع هو الإعلام .

هذا وإن إسرائيل والصهيونية العالمية وما تولَّد عنها من ماسونية وتنظيمات أخرى ظاهرة وسرية ، كانت في كل خطواتها ، التي- لا تغيب عن الوعي البشري في هذه الأرض- هي السيطرة على مصير شعوب العالم ، بدعوى أن ذلك في مصلحة البشرية جمعاء ، كما هو الظاهر من المبادئ المذكورة بتفصيلاتها

المتعددة للحركة الماسونية ، وبروتوكولات حكماء صهيون . ولكن كثيرًا من المفكرين المختصين بالسياسة العالمية ، يذكرون الآن في دراساتهم وأبحاثهم ، إن الماسونية باعتبارها فرعًا من فروع الصهيونية العالمية ، فإن أهدافها وأهداف الصهيونية وإسرائيل ، الحقيقية هي في جوهرها وأعماقها عنصرية وتستهدف سيطرة العنصر اليهودي على مصير العالم ، وإن هذه الصورة البشعة أصبحت تتضح شيئًا فشيئًا للجميع ، الأمر الذي سوف يؤدِّي إلى ثورة جميع شعوب الأرض ضدَّ هذا الخط الشيطاني ، وبالتالي انتهاء الصهيونية وإسرائيل ذاتها ، وقد ذكر بعض الكُتاب الفرنسيين أن هذه النهاية لإسرائيل لن تتعدَّى منتصف هذا القرن الحادي والعشرين ، وذلك يُعتبر تحقيقًا للآية الكريمة : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 7] .

* * *

المعاني العميقة في شمولية تحريم قتل النفس

قد جاء في آخر الآية 151 من سورة الأنعام ، قولُه تعالى في كتابه العزيز :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الأنعام : 151] . الواضح في هذه الآية الكريمة في تحريم القتل أنه قد جاء بصفة عامة ، فعبارة «النفس» تشمل الإنسان والحيوان والنبات وجميع المخلوقات المتنفِّسة ، فعلاوة عن تحريم قتل الإنسان فإن عبارة النفس المحرم قتلُها إلا بالحق قد شملت علاوة على الإنسان جميع أنواع الحيوان بما في ذلك الحشرات الدقيقة التي لا شك أنها تتنفس ، وكذلك تشمل النبات ، فالنبات بجميع أنواعه من شجر وغيره من النباتات الكل يتنفس عن طريق أوراقه كما أثبت ذلك العلماء ، وهنا يتجلى فيه دقة التعبير وعُمقه وشموله . والقتل كما بيَنت الآية الكريمة محرَّم وممنوع إلا إذا كان بالحق ، والحق المشروع الذي يجوز فيه القتل يحتاج إلى الاجتهاد القائم على الصدق والمُنزَّه عن الأغراض الخاصة القائمة على الأنانية التي لا تبالي بحقوق المتواجدين حولها ، فالذي تطلبه الآية الكريمة وكما يطلب ذلك العقل والمنطق المُنزَّه عن الأغراض الخاصة أن القتل لا يجوز لأيٍّ من هذه المخلوقات التي سبق أن ذكرناها إلا إذا كان في تواجُدها ضرر قائم وحاليٌّ لجميع المخلوقات التي حولها ، وإن أزالتها فيه منفعة فائمة وعامَّة لجميع المخلوقات التي حولها ، فمثلًا يمكن إزالة بعض الأشجار أو النباتات إذا كان الغرض من ذلك فتح طريق للناس لكي يتم التواصل بينهم ، وفي غير مثل هذه الأغراض لا يجوز المساس بالشجر أو النبات ، ويجوز ذبح أحد الأغنام أو الأبقار أو الإبل إذا كان في ذلك غذاء لمجموعة من الناس ، ولكن لا يجوز قتل الحيوانات حتى المفترسة غير القابلة للغذاء مثل الأسد والنمر وغير ذلك إلا إذا هاجمتك ، وفيها خطر

عليك وعلى مَن حولك ، وقد ذكر لنا الوالد رحمه الله وهو في طريقه مع القافلة المتجهة إلى «كانو» نيجيريا في أواخر القرن التاسع عشر ، أنه وبعض أفراد القافلة عند توقفها للاستراحة في أعماق غابات المنطقة الاستوائية أن رأوا أسدًا رابضًا غير بعيد من مصدر الماء الذي ذهبا إلى استجلابه للقافلة ، وقد رآهم الأسد وهما يملآن قِرَبهم بالماء ولكنه لم يتحرك لإيذائهم فتركوه في سلام ولم يستعملا سلاحهما الناري ضدَّه . ومرَّة أخرى والقافلة في منطقة «الزفانا» التي ترتفع فيها الحشائش إلى طول الإنسان تقريبًا ، وبغزارة كثيفة ، أن رأوا أسدًا مُقبلًا عليهم في حالة هجوم ، فما كان منهم إلا أن استعملوا سلاحهم الناري فقتلوه ، ولا شك أن العقل والمنطق ينسجمان مع مِثل هذا التصرف ، ولا شك أيضًا أن هذه القاعدة المفترض أنها تسري على جميع الحشرات حتى السامَّة منها إلا إذا ترتب عن وجودها أو بقائها ضرر أو خطر مؤكَّد ، فالذباب والناموس والنمل يجب أولا محاولة إخراجه من المحلات العامة ومحلات الإقامة بفتح الطريق له ، من أبواب وشبابيك ورشِّ الدواء المناسب لخروجه ، فإذا تعذَّر ذلك فلا مناص من إبادته من تلك المحلات التي أزعج وأضر بالمخلوقات المتواجدين بها ، وبناء على هذه القواعد والأسس قد لاحظت في طفولتي وصباي أن العائلة التي أنتمي إليها ملتزمة كل الالتزام بهذه القواعد ، بما فى ذلك ما يتعلق بالحشرات السامة ، فالعقيدة المترسِّخة عندهم هي أنهم إذا قتلوا عقربًا أو ثعبانًا فلا بدَّ أن يُصابوا في يوم من الأيام القريبة بلدغة من إحدى العقارب أو الثعابين ، وقد عاصرت في طفولتي حادثتين من هذا القبيل ، ففي مرة من أيام الصيف كانت العائلة مجتمعة مساءً تتناول الشاي ، وفجاة لاحظ أحد أفراد العائلة عقربًا تتحرَّك قرب موقع تلك الجلسة ، فقام الوالد وأخذ الماشة التي يقلِّب بها الجمر عادة ومسك بها تلك العقرب ولم يقتلها ، بل ألقى بها في المقبرة القريبة من بيتنا ، وقصة أخرى مشابهة ، وهي أن بيت أعمامي وجدوا ثعبانًا في أحد أركان البيت فلم يقتلوه ، بل سايسوه حتى أدخلوه أحد الأكياس وألقوا به في المقبرة أيضًا . ولا شك أن

هذه التقاليد قد انتقلت إليهم أبًا عن جد في هذه العائلة ، وأذكر مرة في السبعينيات من القرن الماضي أنني كنت عائدًا إلى بيتنا في مزرعتي بسيارتي وقد صادفني في الشارع المُسفلت الموصِّل بين بوابة المزرعة والبيت ثعبانٌ ضخم في نفس ذلك الشارع ، كان يزحف بين ضفتَي الشارع ، وكان في إمكاني أن أسحقه بعجلات السيارة ولكني أوقفت سيارتي وتركت ذلك الثعبان يمرُّ من وسط الطريق ثم استأنفت سَيري إلى البيت ، وهذه لا شك أيضًا تُعتبر استجابة لهذه الدعوة العميقة العامة الموجَّهة للمخلوقات المدركة في هذا الكون : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام : 151] .

* * *

هل في إباحة الزواج بأكثر من زوجة هدف إنساني افتقده الغرب؟

قال الله تعالى في كتابه الكريم في الآية الثالثة من سورة النساء : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء : 3] .

لقد ملأ الغرب ، في أوروبا وأمريكا ، العالم نقدًا وتشنيعًا للمسلمين والإسلام الذي أباح الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، ولكي يُثبتوا هذا النقد والتشنيع أكَّدوا في قوانينهم وتشريعاتهم المنع الصارم للزواج بأكثر من زوجة واحدة . ولكن ماذا ترتب عن هذه التشريعات الصارمة؟ . المعروف إعلاميًّا والذي تذكره باستمرار الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى ، مقروءة ومسموعة ومُشاهَدة ، أن ما ساد في العالم الغربي في أمريكا وفي كثير من دول أوروبا في تلك الفترة أن صار للزوج أكثر من عشيقة يمرح معها بعلم زوجته أو بدون علمها ، كما أصبح للزوجة من جهة أخرى على الأقل عشيق واحد من وراء زوجها الغارق في تلابيب عشيقته أو عشيقاته ، وقد ذكرت بعض المجلات الصادرة في العالم الغربي في أوائل هذا القرن في سنة 2010 ، على ما أذكر ، أن الطلاق في أمريكا قد وصل إلى ما يقرب من ثمانين في المائة من عقود الزواج التي حصلت في تلك السنة ، هذا علاوة على انتشار البِغَاء والزواج المثلِيِّ سواء بين الذكور أو بين الإناث!

إن ما ذهب إليه العالم الغربي من التشدد الصارم في عدم تعدد الزوجات من غير شك له جوانبه الإيجابية ، ولكن هذا التشدد له جوانبه السلبية المختلفة التي تترتب على عدم مراعاة الظروف التي تواجه الأسرة والزوجين في تلك الحالات .

فإذا تفحَّصنا هذا الموضوع في الجانب الآخر ، أي في العالم الإسلامي والعربي فإننا نجد أنماطًا مختلفة في تنفيذ هذا التوجيه القرآني ، فالبعض أخذ جانبه

السطحي الذي يتفق مع أهواء النفس ورغباتها ، فأقبل على تعدد الزوجات بدون تعقل أو حكمة ، فحشر في ذمته وبيته الزوجتين والثلاث زوجات والأربع زوجات يتنافسن فيما بينهنَّ ويكيد بعضهن بعضًا ، وما يصيب أطفالهن من الغيرة وكيد بعضهم لبعض ، كل ذلك بسبب عدم حكمة ذلك الزوج المندفع وراء غروره وأهواء نفسه الضالة مستندًا بسطحية وجهالة إلى ما جاء في الآية القرآنية : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ...﴾ . متجاهلًا ما جاء في نفس الآية : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ !

إن هذه الآية القرآنية في جوهرها ومعناها الدقيق هي في غاية الحكمة والتبصُّر . فهي لم تمنع تعدُّد الزوجات بصفة قاطعة ، الأمر الذي وقعت فيه التشريعات الغربية ، بل راعت حالات الضرورة والاستثناء ، فقد تكون الزوجة مريضة مرضًا مزمنًا عاجزة عن إعالة المنزل والمعاشرة الزوجية ، أو قد تكون عقيمًا أو ما شابه ذلك ، فأجيز للزوج في مثل هذه الحالات الاضطرارية ألا يتركها لمصيرها بالطلاق ، وقد تكون في أمسِّ الحاجة إلى رعاية الزوج وعنايته ، وفي الوقت نفسه سمح له التشريع القرآني أن يتزوج زوجة أخرى ، ولا شك أن ذلك سيكون برضاء الزوجة الأولى . وقد يقع الزوج في حب إحدى النساء ، وفي هذه الحالة فبدل أن يتخذها عشيقة من وراء زوجته فقد أجاز له التشريع القرآني أن يتخذها زوجة إلى جانب زوجته السابقة ، مع شرط العدل بينهما ، فإن لم يتوفر العدل منعَ التشريع اتخاذ أكثر من زوجة واحدة : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ . وقد نصَّت القوانين الحديثة في أغلب الدول العربية والإسلامية على أنه لا يجوز للزوج أن يتخذ الزوجة الثانية إلا برضاء الزوجة الأولى ، ولها أن تقبل ذلك بالرضى الكامل أو تطلب الطلاق إذا أصرَّ الزوج على ذلك الهدف ، كما أجاز للزوجات بصفة عامة أن يطلبن الطلاق أو ما يسمونه بـ«الخلع» بشرط أن تردَّ للزوج ما استلمته من مهور .

ذِكر حشرة الذباب بصيغة التحدِّي في القرآن له سرٌّ علينا أن نبحث عنه

قال الله في كتابه الكريم في سورة الحج الآية 73 : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ . وللإنسان أن يتساءل : ما هو المقصود من هذا التحدي الذي ذُكر في هذه الآية الكريمة بخصوص الذباب؟ لقد جاء في الآيات القرآنية كثير من الحشرات مثل النمل والنحل والعنكبوت ، ولكن ليس بصفة ذلك التحدِّي ، فما هو السرُّ الغامض وراء كل ذلك؟ بالتأكيد هناك سرٌّ من الأسرار سيتضح جليًّا في يوم من الأيام ، وربما بعض من ذلك السرِّ ما كان سائدًا في أوائل القرن الماضي الذي عاصرتُه في الوطن الليبي في مدينة طرابلس ، أنه إذا وقعت ذبابة في كأسك في أي مشروب من المشروبات فعليك قبل أن تنزعها من الكأس أن تغمرها في تلك الكأس على الاعتقاد أن في إحدى جناحيها الداء وفي الجناح الآخر الدواء ، ومن أين جاءت هذه الفكرة أو العادة السائدة في بلادنا؟ لا أحد يعرف ، وحادثة أخرى بهذا الخصوص عاصرتُها في صباي وأوائل شبابي حوالي أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي ، هي أن شقيقي الذي يكبرني بثلاث سنوات الحاج عثمان قد أصيب بمرض الحمَّى الذي كان مرضًا خطيرًا في ذلك الوقت ، وفي الغالب ما يذهب بحياة من يُصاب به ، وقد بقي ذلك الشقيق ممدَّدًا في الفراش لمدة أكثر من أربعة أسابيع ، حتى صار في غيبوبة كاملة ، وقد زاره أحد الأطباء الإيطاليين أكثر من مرة لوصف الدواء المناسب ، وفي آخر زيارة قال للوالد هذا وضع ميئوس منه ، ومريضكم هذا لن يعيش أكثر من يومين أو ثلاثة . وفعلا

بدأت العائلة تستعد لهذه الكارثة ، وفي هذين اليومين الباقيَيْن من حياة ذلك الشقيق المنكوب زارت إحدى العجائز العائلة وشاهدت المريض وهو يودع أنفاسه الأخيرة ، كما سمعت ما كان يتردد بين أفراد العائلة عن أقوال ذلك الطبيب الإيطالي ، فنصحت نصيحة قد تبدو غريبة أشدَّ أنواع الغرابة ، إذ قالت إني إنصح أن تسقوه كأس ماء دافئ ممزوج ببقايا الذباب . فتساءل أفراد العائلة : وهل هذا معقول؟ كيف نسقي ابننا الماء الملوث ببقايا الذباب؟ فكأننا بذلك نسقيه السمَّ للتعجيل بموته! فردَّت تلك العجوز : ألم يقل لكم الطبيب إنه في الرمق الأخير ، فلا مانع من تجربة هذه المحاولة فلعلَّ وعسى يكون فيها الشفاء! كان في ذلك الوقت- أي الثلاثينيات- من القرن الماضي بداية استعمال الكهرباء ، فكان في كل حجرة من حجرات البيت سلك كهربائي أبيض اللون ينزل من سقف الحجرة مترين تقريبًا ، وفي آخره المصباح ، وكان في ذلك الوقت الذباب متكاثرًا ويبيت في مجموعة على ذلك السلك الكهربائي ، ومع مرور الزمن يصير ذلك السلك يغمره السواد ببقايا ذلك الذباب ، فقامت شقيقتنا الكبرى بخرط بقايا الذباب من السلك ووضعته في كأس وغمرت الكأس بالماء الدافئ وسقته للشقيق الذي كان في حالة احتضار ، والشيء العجيب والغريب أن الشقيق الذي كانوا ينتظرون وفاته كما قال الطبيب الإيطالي بدأ بعد يومين أو ثلاثة يفتح عينيه ويحرِّك أصابعه ، وبعد أسبوع أو أسبوعين صار يتحرك من فراشه ، **ويمرد كما تمرد** السلحفاة ، وكان في هذه الفترة يطلب الطعام باستمرار وفي جميع الأوقات بنهم شديد ، وبعد أسبوعين أو ثلاثة أخرى وقف على قدميه ، ولم يمضِ أكثر من شهرين بعد أن سُقي من فضلات الذباب حتى رجعت له صحته تمامًا! إنني لو لم أعايش هذه التجربة العجيبة الغريبة لما صدقتها ، كيف تكون فضلات الذباب دواءً شافيًا لشخص كان يحتضر؟!

هل يمكن أن نذهب إلى أن هذه الوقائع التي لا يمكن إنكارها لها علاقة ما بالأسرار الخفية الواردة في الآية الكريمة السابق ذكرها في سورة الحج؟ أعتقد

أن على رجال البحث العلمي أن يدرسوا ما جاء في الآية من أسرار ، قد لا يُصدقها العقل .

إن التأمل في هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات يجعل من واجبنا دراسة جديدة لآيات القرآن الكريم تتفق مع ما وصل إليه العلم الحديث .

* * *

التأكيد القرآني لبرِّ الوالدَيْن دعوة إنسانية رائعة افتقدها الغرب

قال الله تعالى في كتابه الكريم في سورة الإسراء الآيات 23 و 24 : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ .

إن هذ التوجيه الرائع العميق في أصول التربية الذي ربط بين الإيمان بالله والخضوع لإرادته تعالى ، مع تكريم الوالدَيْن والاعتراف بما قدماه من تضحيات في سبيل تربيتنا وتنويرنا في طرق الحياة وتوجُّهاتها ، ومواجهة صعابها وما يُلابسها من أنواع الشرور والآفات ، وهي شرارة فيها النذير مما جُبلت عليها طبيعة كثير من النفوس في نسيان ما قدِّم لها من تضحيات ، ومقابلة كل ذلك بعدم الاكتراث ، بل في كثير من الأحيان مجابهة كل ذلك بالكفران والإساءة لَمن أحسن إليها . إن هذه المواقف السلبية تُصادفنا في كثير من أقاليم المعمورة وخصوصًا في العالم الغربي ، وبالأخص في الولايات المتحدة الأمريكية ، ففي هذه الأقاليم بالرغم من الجوانب الإيجابية في التربية من حيث تفتُّح الأذهان على العلوم الكونية والتوسُّع في مجالات الاجتهاد والإيمان العميق بمبدأ الصدق والالتزام به في مُجريات الحياة فإنهم يفتقدون المبدأ القرآني في البرِّ بالوالدَيْن ، فالذي يتضح مما تنشره وسائل الإعلام المختلفة في هذه الربوع أن الأبناء ، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا ، أول دخولهم مرحلة الشباب ينفصلون عن آبائهم وأمهاتهم انفصالًا تامًّا ، والقليل القليل منهم مَن يذكر والدَيْه أو يتصل بهما حتى هاتفيًّا إلا في الأعياد السنوية ، وقد قال لي أحد الأصدقاء الأمريكيين من الذين تعرفت

عليهم في الاجتماعات السنوية لمؤسسة حقوق الإنسان بجنيف ، وهو يكاد يتمزق حزنًا وألمًا ، إن له ابنة وولدَيْن قد انفصلوا عنه عندما وصلوا مرحلة الشباب ، الابنة تقيم بإسبانيا ، وأحد الولدَيْن يقيم بالهند ، والآخر في اليابان ، وقد انقطعوا عنه انقطاعًا كاملًا ولا يتصلون به إلا في أعياد رأس السنة ، وقد ذكر لي أنه قد سبق له زيارة كثير من البلاد في الأقاليم العربية وقد بهره ما شاهده من الترابط العائلي في هذه المناطق ، فالأبناء حتى عندما يصلون مرحلة الزواج يُفضلون العيش بين أهلهم أو على الأقل أن يكون سكنهم قريبًا منهم كلما أمكن ذلك . إنها التربية القرآنية ، إنها معجزة القرآن !

* * *

الحقيقة الحتمية الغائبة عن كثيرين وما ترتب على ذلك من كوارث إنسانية

قال الله تعالى في سورة الزُّمَر الآية 30 قولَه تقدست أسماؤه مخاطِبًا رسوله ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بالصفة القاطعة الحاسمة ، وهي التعبير القاطع الحاسم في هذا الكون ، فمند وُجِدت هذه الحياة التي نعيشها وتعيشها جميع المخلوقات الحية من حشرة وحيوان وإنسان فالكل إلى ذلك المصير المحتوم ، والواقع أنه لو تدبَّر الإنسان بعقله ووجدانه هذه النهاية الحتمية التي لن يفلت من حتميتها أي مخلوق في هذا الكون لكان ذلك الوسيلة الرائعة لتهدئة النفوس البشرية ودفعها إلى التواضع وانتشار الخير والصلاح بينهم ، ولاستطاع هذا الكون أن يعمه السلام ، ولانطفأت نيران هذه الحروب والمآسي والدماء التي تكاد تغرق الأرض ، ولاستطاع الإنسان أن يوفر مجهوده وإمكانياته إلى البناء والتقدم والازدهار ، وقد دارت في ذهني هذه الأفكار طَوال حياتي ، وأذكر في السبعينيات من القرن الماضي عندما تحققت نهاية حياة بعض الأصدقاء الذين كانت تربطني بهم المودة والتعاون والمشاركة في ما يمكن إصلاح تلك النفوس التي نعيش بينها ، فكتبت بعض هذه الأفكار في مجلة «المحامي» بعنوان «الحقيقة» ، لعل من المُستصوب إعادة نشرها؛ فهي تُعبِّر عن الحقيقة القرآنية قولًا وفعلًا .

* * *

الحقيقة

لقد ذهبوا : شفيق الرشيدات ، مصطفى البرادعي ، أمين الشبلي ، عبد الكريم بن جلول .

لقد ذهبوا : كامل الهوني ، مختار البكوش ، يوسف الرعوبي ، سالم سليم ، شعبان عريبي .

وكان لا بد أن يذهبوا كما ذهب من قبلهم : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومُحمد ، وسقراط ، وبوذا ... والنمرود ، وفرعون ، ونيرون ، وهولاكو ، وهتلر ، ووايزمان ... إلى آخر السلسلة من الأسماء والأنماط ... البعض منهم قد تحلل تمامًا وصار ترابًا كهذا التراب الذي تطؤه أقدامنا في رَوْحاتنا وغدواتنا ، والبعض الآخر في طريقه إلى أن يصير كذلك .

هذه هي الحقيقة التي لا استثناء فيها ، ولا يمكن تغليفها بالأهواء والأباطيل . الحقيقة الدامغة ، القاطعة ، الحاسمة ، والقديمة قِدَم هذه الأرض بما فيها ومَن فيها .

الحقيقة التي لم يستطع أي مخلوق في هذا الكون ، من يوم أن وُجِد هذا الكون ، أن يدحضها ، أو يأتي بما يخالفها . الحقيقة التي حطَّمت كبرياء المتكبرين ، وضحكت من طموحات الطامحين ، واستهزأت بغرور المغرورين .

الأخيار والأشرار يذهبون ، الملوك والأباطرة والعامة يذهبون ، الأغنياء والفقراء ، العباقرة والأغبياء ذاهبون ، ما غاص في البحر ، وما طار في الجوِّ ، وما دبَّ على الأرض فإلى ذلك المصير المحتوم . ألم تقل السماء بصفة القطع والحسم : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ؟ إنها الحقيقة .

... ومع ذلك فهذه الصيرورة من التراب وإلى التراب ، لم تذهب هباءً ، أما الروح فقد استقل بعلمها الخالق ، ويبقى بعد ذلك لنا نحن بني البشر ذلك

المعنى السامي المُشرق النبيل الذي تُسميه الموعظة ، وإذا أغرقنا في تبسيطه ندعوه التأمل .

وللمتأمل أن يرى أن رحلة البشرية وإن كانت قاسية وأليمة ، وتجتذبها عوامل المدِّ والجَزْر ، فإن مؤشراتها تدلُّ على أنها في صعود مستمرٍّ ، فالماضي قد ترك للحاضر والمستقبل كتبًا مقدسة ، وفلسفات قيِّمة ، وتعاليم ومبادئ رائعة ، خطوطًا مستقيمة على الطريق تحنُّ لها النفس ، ويهفو لها الوجدان ، ويحتضنها الفكر ، ولا يخطئها العقلاء . وقد بيَّن لنا الماضي أيضًا أن الأصنام ستتحطم حتمًا ، والطواغيت ستزول لا محالة ، والطغيان لا بد له من نهاية . ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد : 17] . وهذه هي الحقيقة مرة أخرى .

الناس سيذكرون باستمرار ، وعلى مدى الأجيال أولئك الرجال الأفذاذ الذين استطاعوا أن يخطُّوا للبشرية بدمائهم ، وآلامهم ، وأشجانهم ، خطًّا ساطعًا ، مشيرًا إلى الطريق . أولئك الرجال الذين رفضوا الحكم والجاه ، مُؤْثِرين الكرامة والشرف ، وواجهوا العسف والطغيان ، في شجاعة واستبسال ، وتحملوا ويلات المرض والتشرُّد ، في سبيل الحق والحرية .

إننا عندما ننشر في هذا العدد البيان العالمي لحقوق الإنسان ، والاتفاقية الدولية لإزالة ومعاقبة جريمة التفرقة العنصرية ، نعتبر هذا الوهج الذي يُلقي نوره وسناه على الطريق ، هو النتيجة الحتمية لما قاساه أولئك الرجال الأفذاذ من عذاب وآلام .

ومرة أخرى : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد : 17] .

* * *

المعاني الصادقة لقوله تعالى :

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾

قال الله تعالى قي كتابه الكريم في سورة الفتح الآية 29 : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ إن هذه الآية الكريمة لها مظاهرها الواضحة في هذه الحياة التي نزاولها صباحًا مساءً على كرِّ الأيام والسنين ، والذي أذكره جيدًا أنني عايشت في حياتي في فترة الصِّبى وأوائل الشباب أناسًا تنطبق عليهم مظاهر هذه الآية وما تضمنته من أسرار ، منهم المرحوم الحاج إمحمد التركي ، كان هذا الرجل إذ ذاك في حوالي الخمسين ، وكان يتعبَّد مع مجموعة من مريديه بتلاوة أوراد تعبُّدية بما يسمَّى بـ«الحزب» في رحاب ضريح «سيدي الشعاب» الكائن في شواطئ منطقة زاوية الدهماني ، وقد ربطني مع هذا الرجل الصالح نوع من التآلف والمودَّة ، وقد استفدت كثيرًا بنصائحه وإرشاداته فيما يخصُّ الشئون التعبدية أو فيما يتعلق بالصالح العام وبذل كل مجهود في مساعدة مَن حولك مما في حاجة إلى المساعدة ، وكان هذا الرجل المبارك يزورنا في دكَّان الوالد بشارع زاوية الدهماني ، وكان وجهه يشعُّ بنور سماويٍّ لا يخفي على أحد ، فكان كل أهالى المنطقة جميعًا يقدِّرونه ويحترمونه ويلتمسون دعواته وبركاته ، فهذا الرجل من تنطبق عليه فعلًا ما جاء في الآية الكريمة ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح : 29] ، ولم يكن له ذقن طويل ولا لطعة في

جبينه ، وعلى كل حال ما كنَّا في تلك الفترة الزمنية المباركة نشاهد هذه الذقون الطويلة واللطع البارزة السائدة في مجتمعاتنا الآن في هذه الفترة التي ساد فيها الزيف والتظاهر المظهري السائد ليعتقد الناس أنهم من المقربين الذين تنطبق عليهم ما جاء في تلك الآية الكريمة : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ ، ولا شك أن كل تلك المظاهر زيف ونفاق ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم ، والتي كانت نتيجته ما نعيشه في هذه الأيام من مآسٍ وآلام بسبب تظاهر أو نفاق هؤلاء القوم الذين انتشروا في هذه المنطقة ذات التاريخ المبهر ومهد الرسالات السماوية ، فأفسدوها وعتوا فيها فسادًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقد سبق لي أن كتبت في هذا الخصوص بعض ما كان يجول في خاطري من آلام بسبب ما يجري حولي من مرارة وآلام تحت عنوان «دردشة على ضِفاف النيل» ، قد يكون من المناسب وربما من المفيد نشرُها مجددًا :

* * *

دردشة على ضِفاف النيل

جمعتني به في شوارع القاهرة الغُربة المفروضة ، حيث كانت حياتنا مُهددة في وطننا المظلوم الذي ساده النظام الهمجي الذي استمرَّ إذ ذاك أكثر من أربعين سنة ، وكنا نتسكع في تلك الشوارع الغاصَّة بأنماط مختلفة من البشر ، شبابًا وشيوخًا ذكورًا وإناثًا ، وكان الجوُّ صحوًا خلال خريف 2008 ، وقد لفت نظرنا في ذلك الزحام العجيب الذي غصَّت به عاصمة المعزِّ كثرة الذقون الطويلة واللطع التي تتصدر جباههم والتي تبعث إلى الاعتقاد أن عاصمة الأزهر الشريف بكل خير ما دام يتصدر سكانها هؤلاء الأتقياء الوَرِعين . فهذه المظاهر هي الدليل القاطع على تمسُّكهم بدينهم . الواقع ، هذا الذي دار بذهني وذكرته لرفيقي الذي كان يتسكع معي في تلك الشوارع المزدحمة ، ولكنَّ رفيقي انتفض كأنَّ مسًّا كهربائيًّا أصابه وألقى على مسامعي درسًا لا يمكن نسيانه .

قال لي : لا يغرَّنك ما تشاهده في هذه الذقون والجباه ، فهي لا يمكن أن تدلَّ دلالة صادقة على تقوى أصحابها أو يمكن اعتبارها تنفيذًا صحيحًا لشريعتنا الغراء ، ثم استرسل في حديثه وقال لي أرجو ألا تظن فيما أدلي لك به أنني أريد أن أفاخر بتديُّني وتقواي ، إني قد مرَّ عليَّ الآن أكثر من خمسين سنة ملازمًا لصلاتي في أوقاتها الخمسة وكثيرًا ما كنت أصلي مع كل وقت من أوقات الصلاة الأوقات الخمسة ، أي حوالي سبعين ركعة وأكثر من مائة وخمسين سجدة يوميًّا ، ولكن لم تظهر لي تلك العلامة أو اللطعة التي تراها في جباه مَن تشاهده في هذه الشوارع ، والبعض منها تنزُّ مادة مقزِّزة ، هذا في الوقت نفسه الذي قد شاهدنا كثيرًا من النساء في هذه الشوارع ولم نشاهد في أي واحدة منهنَّ هذه العلامة في جبهتها ، ألا يوجد في كل هؤلاء النسوة مصلِّيات كغيرهنَّ من الرجال الملطعة جباههم؟! ألا يدل كل ذلك على أن هذه العلامات التي شاهدناها ونشاهدها في

جباه مَن نصادفهم هي علامات ، إن لم تكن كلها ، فأكثرها مفتعلة ، وهي إن دلَّت على شيء فإنما تدلُّ على النفاق والتظاهر بالتقوى ، والمنافقون ، كما يقول الكتاب المقدس ، في الدرك الأسفل من النار . وصدقني يا صاحبي أني من الذين يَتْلُون حزبًا وأحيانًا جزءًا من القرآن الكريم يوميًّا قبل صلاة الفجر ، وكانت هذه التلاوة بإمعان وتدبُّر في آياته الحكيمة وكثيرًا ما رجعت في تفسير بعضها إلى فُقهاء التفسير : الجيلاني والطبري وابن كثير . وقد أجمع هؤلاء الفقهاء في تفسير الآية الكريمة ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ . إن ذلك هو النور الذي يظهر في وجوههم دنيا وآخرة ، ولم يخالف هذا الرأي إلا القرطبي الذي قال ما قاله بقية المفسرين إلا أنه أشار إلى أحد التابعين الذي ذكر أن ذلك هو آثار التراب أو الطين الذي يظهر على الجبهة بعد السجود .

واستمرَّ صاحبي في حديثه ، بعد أن وصلنا إلى أحد المقاعد في الحديقة التي تواجه مجرى النيل ، هذا النهر العريق العظيم الرائع ، فقال لي ، طالما فكَّرت في هذه الذقون الطويلة التي انتشرت انتشارًا ملحوظًا في عالمنا العربي والتي اشتهر بها مواطنينا من جماعة الإخوان المسلمين ، وقد طلبت مرة من أحد أصدقائي في مصر الذي عُرف باتصالاته الواسعة في المجال السياسي والاجتماعي وطلبت منه أن يحاول تحديد موعد لنا مع المرشد العام للمقابلة والحديث معه فضيلته ، لكوني أريد أن أثير انتباهه إلى موضوع خطير متعلق بانتشار ظاهرة الذقون الطويلة بين الإخوة التابعين لفضيلته ، الذين بالرغم من احترامنا لهم ولتوجُّهاتهم فإن ظاهرة الدقون واللطع في الجبهة التي يتمسكون بها وجعلوها كشعار لجماعتهم ، فالخطير في هذا الأمر أنها قد اتُّخذت وسيلة من وسائل أعداء الإسلام والمسلمين ، من صهاينة ومتعصِّبي المسيحية ، وذلك للانتشار والاندساس بين العرب والمسلمين في العالم الغربي ، في أوروبا وأمريكا بصورة الذقون الطويلة واللطع التي تتصدر الجباه ، ويقومون بأعمال عنف وإرهاب في تلك الأرجاء ، ثم يقوم بالتطبيل والطنطنة لها الإعلام الصهيوني باعتبار تلك الأحداث التدميرية إرهابًا إسلاميًّا ، مما جعل سُمعة العروبة والإسلام معرَّة في العالم الغربي ، مع أن الإسلام هو

رسالة السلام إلى العالم بأسره والإسلام قد جاء من كلمة السلام ، ونحن نكرر كلمة السلام في صلاتنا أكثر من خمس مرات في اليوم ، وعندما نلتقي تكون تحيتنا هي «السلام عليكم» والرد على هذه التحية هي «وعليكم السلام» ، والمسلم كما جاء في المأثور هو «من سَلِمَ الناسُ من يده ولسانه» ، وكلمة «الناس» تشمل المسلم وغير المسلم ، وعليه يجب أن يكون شعارنا هو السلام ، سواء فيما بيننا أو في العالم الغربي الذي يتهمنا بالإرهاب ، وسأذكر لفضيلته أن هذه الذقون الطويلة التي جعلها الإخوة التابعين لفضيلته شعارًا لهم ولإسلامهم باعتبارها تقليدًا لصاحب الرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا التقليد هو في واقع الأمر تقليد خاطئ ، ذلك أن رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وصحابته من التابعين الأبرار كانت فعلًا لهم ذقون كما جاء في السيرة النبوية ، ولكن أعداء الرسالة كانت لهم ذقون أيضًا وخاصة أبو جهل ، أعدى أعداء الرسول ورسالته الغراء ، وبالتالي في رأيي لا يمكن اعتبار الذقون الطويلة شعارًا إسلاميًّا ، أو يمكن اتخاذه مظهرًا للمسلمين ، إني أعتقد أن لأي إنسان الحق كل الحق في أن يطيل ذقنه أو يقصرها حسب راحته ومفهومه ، ولكن لا يقبل أبدًا أن تكون الذقون الطويلة دليلًا على تقوى المسلم وتمسُّكه بإسلامه . هذا ما كنت أرغب في إيصاله إلى فضيلة المرشد العام ، ولكنَّ صاحبي رفض رفضًا باتًّا إجراء هذه الزيارة ، وقال لي إن فضيلة المرشد العام رجل فاضل واسع الأفق والصدر قد يتفهَّم وجهة نظرك ، وقد يتصرف معك بسلام وأخوَّة ، ولكن بعض من يدورون حوله قد يتهمونك بالكفر والزندقة ، وقد يترتب على ذلك قتلك أو ما لا تُحمَد عُقباه . إنه من المؤسف جدًّا أن حرية الرأي واختلاف وجهات النظر أصبحا محرَّمين وفاحشَيْن في منطقتنا العربية والإسلامية المنكوبة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي هذا التخلف المزري الذي نرسف في أغلاله ، وليس لنا إلا الإعجاب والانبهار عمَّا يجري في العالم الغربي من تقدُّم وازدهار . وعليه ، قال لي صاحبي : قد تركت هذا الموضوع للزمن يتولَّى هدايتنا إلى طريق الصواب . ولله في خلقه شئون .

* * *

هذه بعض الأفكار والآراء فيها اجتهاد ، الله أعلم بصوابه أو خطئه ، وكما قال بعض المتقدمين : «عِلْمُنا هذا رأيٌ فمَن جاءنا بخيرٍ منه قَبِلْنَاه» ، أو كما قال الآخر : «رَأْيُنا صوابٌ يحتملُ الخطأ ، ورأيُ غَيْرِنا خطأٌ يحتملُ الصواب» . ولله في خلقه شئون .

ولا زال البحث مستمرًّا ، وكما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : 85] . إن هذه الأفكار قد تكون مجرَّد تهويمات قد أتت بها الصُّدف ، وقد يكون لها أعماقها التي يجب علينا أن نُمعن النظرَ فيها ، ومَن جدَّ وَجَد .

عبد الله شرف الدين